مناهج البحث في الإعلام الجديد

د . حسام إلهامي ، د . أحمد سمير حماد ، د . مها عبدالمجيد (2013)

دار الوابل الصيب و مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، 334

مقدمه:

في الوقت الحاضر الذي يكثر فيه الحديث في العلوم الطبيعية عن "الثورات العلمية" - علي حد تعبير توماس كون- يسود في الخطاب العلمي الخاص بالعلوم الإنسانية مصطلح "الأزمة"، فالبحث العلمي في العلوم الإنسانية يعاني أزمة البحث عن المنهج والأدوات والأساليب العلمية والتحليلية المناسبة لطبيعة الظاهرة الإنسانية والقادرة علي كشف دقائقها.

وحتى لا يتبادر إلي ذهن القارئ ما لا نقصد؛ نؤكد هنا أن "الأزمة" التى تمر بها العلوم الإنسانية هي أزمة طبيعية تمر بها العلوم المختلفة بين حين وآخر حين يسري في كتابات هذا العلم شكلاً من أشكال الوعي النقدي لما هو قائم بهدف إعادة تشييد بناء علمي جديد.

ولعل البحث العلمي الاتصالي أحوج ما يكون إلي تأصيل هذا الوعي النقدي المنهجي بهدف إعادة تأسيس مناهجه وأدواته العلمية حتى ينضج هذا العلم ويخلع عن نفسه عباءة التبعية المنهجية، والتكلس الإجرائي، وغياب النماذج المعرفية والأبعاد الفلسفية التفسيرية العميقة والشاملة التي تحدد طبيعة الظاهرة وموقع ذات الباحث منها وآليات رصدها وتحليلها وتفسيرها واستخلاص الكشف العلمي العام الذي تم الوصول إليه، وذلك بالاستفادة مما تم الوصول إليه فى مجال مناهج البحث العلمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية عموماً وكذا من خلال الوصول إلى الآليات العلمية والمنهجية التى تتلائم مع طبيعة الظاهرة الاتصالية وما تتسم به من خصوصية وديناميكية.

ويأتي هذا الكتاب محاولة من مؤلفيه لتدعيم أركان مناهج وأسس البحث الاتصالي انطلاقا من أحد ظواهر هذا العلم التي صارت تشكل محور جذب لفيض من البحوث العلمية ونقصد بها هنا ظاهرة "الإعلام الجديد New Media"، تلك الظاهرة التي أدت إلي الكثير من الوقفات والمراجعات علي مستوى المفاهيم والأطر والنماذج النظرية، وبالقدر نفسه علي مستوى منهجيات وأساليب البحث.

ويعني الكتاب بالوقوف وقفة متمهلة متأملة للبعد العلمي والمنهجي لظاهرة الإعلام الجديد من منظور نقدي ينطلق من رصد وتحليل الجهود العلمية التي أسست لعلم مناهج البحث في مجال الاتصال، ثم يحاول الانطلاق من هذا النقد إلي بناء ذي ملامح واضحة لمنهجيات وأسس وإجراءات البحث في مجال الإعلام الجديد، في إطار يعي أن ظاهرة الإعلام الجديد ينبغي أن تعالج بوصفها ظاهرة اتصالية، وقبل ذلك بوصفها ظاهرة إنسانية.

ولا يشكل هذا الكتاب تمردا علي مناهج البحث العلمي بقدر ما يشكل تمردا من أجلها، فهو محاولة لترويض تلك المنهجيات لمسايرة ظاهرة جديدة تفرض نفسها بقوة علي أولويات البحث الاتصالي، وهي لحظة عاشتها علوم كثيرة من قبل.. تلك اللحظة التي يقف فيها العلم وأصحابه وقفة تأمل أمام تشكل لواقع إنساني جديد، بحيث ينصب شطر من هذا التأمل ليس علي حقيقة هذا الشئ فقط، بل علي الآلية التي يمكن أن توصل إلي حقيقته وقد ساندها دليل علمي نتج عن تطبيق أدوات علمية ومنهجية

وعندما شرع مؤلفو هذا الكتاب في وضع خطته والأساس المعرفي الذي سيقوم عليه كان هناك أكثر من توجه يمكن اتباعه، تمثل التوجه الأول في انتهاج سبيل منهجي نظري وطبقاً لهذا التوجه يكون علي فصول الكتاب مناقشة الإشكاليات النظرية التي فرضت نفسها مع تبدي ظواهر الإعلام الجديد.

أما التوجه الثاني فتمثل في توجه عملي يجعل من فصول هذا الكتاب دليلاً ومرشدا لكيفية إجراء البحوث في مجال الإعلام الجديد .. وهو توجه يلح علي الكثير ممن يكتبون في مناهج البحث في الاتصال، نظرا لحالة القلق المنهجي والعلمي التي لازالت تعتري هذا التخصص وتشتت الباحثين بين الإجراءات بسبب اللجوء إلي الجمع والألتقاط لإجراءات وأساليب وأدوات من علوم أخري أكثر رسوخا من علم الاتصال، مما أخر ظهور الأساليب المنهجية التي تلائم هذا التخصص وظواهره وتجعل الباحث يبحث عن أدبيات إجرائية تحدد له خطوات عمله أكثر من أي شئ آخر.

وغني عن البيان أن اختيار أي من هذين التوجهين من شأنه أن يفرض طابعا محدداً للأفكار وأساليب الكتابة والعرض. وكان اختيار مؤلفي الكتاب هو الجمع في بنائه بين الرؤيتين، بحيث يشكل الكتاب عرضا مكثفا لآليات وإجراءات البحث في الإعلام الجديد، مع التوقف بشئ من الروية والنقاش والنقد الجدلي أمام الإشكاليات النظرية الكبرى التي تفرضها المرحلة الحالية من مراحل البحث في الاتصال.

والكتاب مكون من خمسة فصول تحاول أن تقدم إطارا منهجيا تكامليا لبحث ظاهرة الإعلام الجديد بدءا من المستويات ذات الرؤية الكلية العامة وانتهاءً بمستويات التحليل التفصيلي والإجرائي لهذه الظاهرة.

ويأتي الفصل الأول تحت عنوان " فلسفة العلوم والبحث الإعلامي: محاولة لتأصيل فلسفة علمية لعلم الإعلام" وهو محاولة للتأصيل لفلسفة علمية لعلم الإعلام من منطلق أن البحث في مجال الإعلام عموماً والإعلام الجديد خصوصاً لابد أن يتأسس علي أرضية فلسفية وتحديد لنظرية المعرفة التي يجب أن يتبناها الباحثون والتي تحدد مجال المعرفة العلمية وشروط الوصول إليها وكيفية صياغتها، ذلك أن البعد الفلسفي المعرفي يكاد يكون غائبا في أدبيات مناهج البحث الاتصالي خلال العقود الماضية التي انصب جل تركيزها على البعد الإجرائي فقط دون البعد الفكري التفسيري للجهد البحثي.

وتحت عنوان "الإعلام الجديد: التصنيفات والمفاهيم وعناصر الظاهرة" يتناول الفصل الثاني محددات ظاهرة الإعلام الجديد متناولا مفهوم الظاهرة وعناصرها والبيئة التي تعمل خلالها وسائط الإعلام الجديد ومجالات دراسة وبحث هذا النوع من الإعلام.

ويعرض الفصل الثالث لاتجاهات وتيارات وأنماط البحث في الإعلام الجديد محاولا بناء أجندة بحثية مقترحة للبحث العلمي في مجالات الإعلام الجديد .

ويبحث الفصل الرابع في إشكالية البحث عن المنهج العلمي الملائم والمناسب لبحث ظواهر الإعلام الجديد، إنطلاقاً من أن الاتصال التكنو- اجتماعي قد أثر على نحو مباشر في قدرة وفعالية المناهج البحثية ونظرياتها في التعامل مع ظواهر الإعلام الجديد

وأخيراً يسعي الفصل الخامس إلي تقديم طرح مفصل لإشكالية "التظرية فى بحوث الإعلام الجديد"، فيتم خلاله استعراض وتحليل ملامح إشكالية الإطار النظري التى يصطدم بها الباحثون فى دراسات الإعلام الجديد مع التركيز على بحوث التأثير، ثم ينتقل الفصل إلى طرح ومناقشة المخارج الممكنة لتجاوز هذه الإشكاليات، وينتهى إلى طرح تصور لكيفية إنتاج وبناء النموذج النظرى المفسر الذى قد يستعين به الباحث، بوصفه أحد أبرز وأهم التطبيقات لإشكالية النظرية فى بحوث الإعلام الجديد .

بقي أن نؤكد ان مؤلفي هذا الكتاب هم ثلاثة من باحثي الاتصال تشكل وعيهم البحثي والعلمي خلال سنوات الصعود الأولى لتقنيات الاتصال عبر الإنترنت، وما أنتجه ذلك من صدمة معرفية – إن جاز التعبير - نتجت عن انكشاف الستار الذي كان يعزلنا عن العديد من تيارات الكتابة والبحث، خاصة ما كان يقع منها خارج مصر والعالم العربي، وما يقع منها خارج علم الاتصال، وهي كتابات وتيارات قصّرت حركة الترجمة إلى العربية تقصيراً فادحاً في الإلمام بها ونقلها إلينا، فشكلت الإنترنت سبيلاً جديداً للإطلاع على هذه البحوث والكتابات وما حفلت به من توجهات بحثية جديدة ومغايرة لما كان مطروحاً قبل ذلك في كتابات الاتصال العربية .

وقد أوصل هذا الإطلاع إلى مجموعة من الحقائق المهمة أبرزها إمكانية تأسيس معرفة منهجية علمية عربية أصيلة قائمة علي التفكير النقدي، لا مجرد النقل والترجمة لأدوات وأساليب وإجراءات ونماذج أجنبية تقابل بحفاوة وإكبار يثيران الدهشة ويعطلان في الوقت ذاته ملكة التفكير الناقد الفعال. وتكون مهمة الباحث في أغلب الأحيان هو إعادة اختبار فروض هذه النماذج والمداخل النظرية وإعادة تطبيق ذات الأساليب والبحثية طرح نفس الموضوعات، دون وعي بأهمية وقيمة ما سوف يتم اكتشافه، ما دام الباحث قد خلق لنفسه سياجاً حامياً من الموضوعات والإجراءات المعروفة والمتداولة والتي سوف تحميه من النقد العنيف لطبقة المحكمين والمناقشين. وهو للأسف وضع شاع في بحوث الاتصال – وربما في غيره من التخصصات – بسبب تركيب اجتماعي ثقافي لعملية إنتاج المعرفة العلمية وضع ثقافة استرضاء المشرفين والمحكمين محل ثقافة الاكتشاف العلمي لأسباب كثيرة لا يتيح المقام الحالي سردها.

وتتمثل الحقيقة الثانية في إمكانية تشييد طرح منهجي علمي يلائم الظاهرة الاتصالية ويستوعب متطلبات كشف حقائقها علي نحو علمي يراعي خصوصيتها من ناحية، وإنتمائيا إلي فئة الظواهر الإنسانية من ناحية ثانية. وهو طرح منهجي يحاول أن يستوعب الاتجاهات الحديثة والجهود المبذولة من أجل التأسيس لمنهجية علمية للبحث في العلوم الإنسانية من خلال التأسيس لمناهج علمية مغايرة عما كان سائداً خلال عقود التماهي والذوبان في مناهج العلوم الطبيعية، وذلك سعيا لانتشال هذا العلم الوليد من براثن الالتقاط والتقليد.

بيق أن نتوجه بالشكر الجزيل لكل من ساند خروج هذا العمل للنور وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور عبدالله الرفاعي أستاذ الإعلام الجديد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الذي تحمس لفكرة هذا الكتاب ورأى

فيه إضافة إلى المكتبة الإعلامية في مجال مناهج البحث، وساند العمل في كل مراحله حتى وصول الكتاب لشكله النهائي.

وأخيراً.. نسأل الله العلي القدير أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كل باحث عن معرفة.